(أثر البيئة في أدب المدن العراقية في القرن التاسع عشر)

دراسة نقدية

أ٠ د محمد حسن علي مجيد الحلي

تاريخ الاستلام : ٢٠٢٢/١١/٢٣
تاريخ القبول :٢٠٢٢/١٢/١٨

يكاد يجمع مؤرخو الادب والباحثون على ان (الادب هو ابن البيئة) ، فهـــو يصطبغ بألوانها ويتأثر بأتجاهاتها ثم يؤثر فيها ، ويؤكد العلم الحديث هذه الحقيقـــة أن لكل بيئة مزاياها وخصائصها وظروف حياتها التي تطبع الادب بطابعها وتترك عليـــــه بصماتها٠

ج

ومن خلال دراستنا للادب العراقي في القرن التاسع عشر وجدنا أن لكل مدينة عراقية طابعها الادبي الخاص بحسب طبيعة الحياة القائمة فيها ، حيث تميزت كل مدينة عراقية ، قداجادت بغرض او فن شعري يختلف مما أجادت بغرض أو فن شعري يختلف مما أجادت فيه غيرها ولا سيما في منابع الشعر الرئيسية في العراق حينذاك ، وهي (بغداد والحلة و النجف و الموصل) ، وذلك تبعاً للظروفها وبيئتها التي تركت بصماتها واضحة على وجه الشعر التي طبعته بطابعها واملت عليه شؤونها وشجونها ٠٠٠

ولغرض أن تكون الفكرة واضحة ، نحاول أن نلقي نظرة نقدية مقارنة موجزة على طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية لكل منها في هذه المرحلة لقد كان المجتمع العراقي في هذه الحقبة في حالة الفوضى والاضطراب ، فقد نخرت فيه الافات وقرفته الاهواء واقتسمته مطامع الولاة والموظفين وأهل المال والجاه والمصالح ، واحتدمت فيه الديانات والمذاهب والقوميات ، فخضع لمؤثراتها فجعلت من العراقيين مواطنين ذوي طبائع خاصة تبعاً لساكنيها وظروفهم وعاداتهم وبسبب اتباع الحكام سياسة (فرق تسد) والبطش والتعسف ، وذلك بأستخدام بطانة فاسدة ، حتى غدت البلاد مرتعاً للصوص وقطاع الطرق ، فانكمش الناس في مدنهم وقراهم وتباعد بعضها عن بعض ومن ثم صار لكل مدينة عراقية طابعها الخاص[١]٠

فبغداد – مثلاً – كانت مركز الولاية ومقر الحكام والولاة والموظفين الكبار ، وأهل المال والاعمال ، فسكانها على هذا الاساس أكثر أتصالاً بالحياة العامة وبالسياسة والاداريين والموظفيين وضباط الجيش وهم أكثر تأثراً بالاحداث

السياسية والاجتماعية كما يسكنها اصحاب الوجاهة والثروة ومنهم في الغالب يختار الموظفون الكبار وتولي المناصب المهمة كمناصب الافتاء والقضاء والخطباء والمدرسين كما كان يختار من ابناء هذه الطبقة الدخول في المدارس العسكرية ومن ثم يتخرجون ضباطاً يتولون زمام البلاد فيما بعد لذلك انقسموا في السياسة واحداثها بين تأييد السلطة او معارضتها ٠

اما الحلة – فقد كانت مدينة منكمشة على نفسها ولا تثق بالولاة والحكام الاتراك الذين أتسم أكثرهم بالتعسف والجور ، فقاطعهم أهلها ،واجتنبوا دوائرها وقد ذكر السائح الانكليزي (بكنغهام) (أن الاتراك وحدهم كانوا يشغلون كل دوائر الدولة في الحلة) [٢] ، لذلك انطووا على انفسهم وداروا همومهم وأحزانهم بالرثاء للاهل والاصدقاء ورثاء ال البيت (عليهم السلام) ٠٠٠

اما النجف فقد كانت مبتعدة عن السياسة وأحداثها أيضاً ، بل لنقل انها ابعدت عنها وحرم ابنائها من التوظف في دوائر الحكومة والمشاركة في الحياة العامة ، كما أسهمت مسألة التجنيد الاجباري وأساليب الحكام الاتراك التعسفية فأدى ذلك الى النفور من الحكومة ودوائرها ، فأحسوا بفراغ كبير في حياتهم وضجر شديد فأتجهوا الى التنفيس عن انفسهم بالفكاهة والغزل وعقد مجالس اللهو والتندر والمساجلات الاخوانية والمطاردات الشعرية والهزل والعشق المصطنع وافتعال مجالس الخمر والشراب ٠

اما الموصل : فقد عرفت منذ القدم بأتجاهها الديني ، وأشتهرت بكثرة شعر الزهد والتصوف وبكثرة اشعار المدائح النبوية وشعر الدعاء والتوسل والاستغفار ، ومدح الصحابة ومدائح مشايخ الطرق الصوفية ٠

أذن حين أنشغلت بغداد بالسياسة وأحداثها ، ومدح الحكام أو معارضتهم وهجائهم ، فيما تلفعت الحلة برداء الحزن وصارت تنفس عن همومها بالنحيب والبكاء واشعار الحزن والرثاء ، واتجهت النجف الى الفكاهة والغزل واصطناع مجالس الانس اما الموصل فقد اخذ ادبها الاتجاه الديني وشعر الزهد والتصوف ومدح الاولياء والصالحين والمدائح النبوية واصحاب الطرق الصوفية ٠٠٠

أذن لنستعرض الاغراض الشعرية التي اجادت بها كل مدينة من هذه المدن حسب رؤيتها ومدى تأثير البيئة على ادبها ٠

١- بغداد والشعر السياسي (دراسة مقارنة) :

يفهم من الشعر السياسي – بالمعنى العام – تأييد الدولة والحكام أو معارضتهم ، الذي اجادت به بغداد وشعراؤها دون غيرهم من مدن العراق بسبب طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية التي ذكرناها سابقاً – وقد ابدع شعراء بغداد في هذا الغرض في اتجاهين مختلفين ، فرهط أثر كرامة الوطن وعزة النفس ، ولم يتزلف لحاكم أو وال ، وهم كثيرون ، واخرون مدحوا الحكام ، ويكاد الشاعر (عبد الغني جميل) (مفتي بغداد) يمثل الاتجاه المعارض وقد ذكر الباحثون : (أن شعره السايسي سجل حياة بغداد في عصره تسجيلاً دقيقاً) [٣] وللمثال نذكر بعض أبيات له من قصيدته التي ارسلها الى صديقه (شهاب الدين أبي الثناء الاوسي) ٠ بعد أن هاجر من بغداد الى الشام بسبب مطاردة الحكام له بعد هجائه لهم وتبيان مظالمهم وتبيان حال بغداد المزري أيامهم في قصيدة طويلة نذكر منها قوله :

لهفي على بغداد من بلدة قد عشعش العز بها ثم طار
حل بنا قوم وهم على عمى ماميزوا أشرارها والخيار
وأصبح القرد بها مقتدى يلعب بالالباب لعب القمار
وللخنا لما غدت مرتعاً قد سجد الليث بها للحمار
قد نعق البوم على صدرها يصيح بالناس الفرار الفرار
ابا شهاب الدين ياسيدي قد هجم النذل علينا وغار
بغداد كم اخنى عليها الذي من اسره لايستطاع الفرار [٤]

وشاعر بغدادي أخر هجا الولاة الاتراك علانية في قصيدة طويلة له نذكر منها قوله :

أفخترمي ثوب المنون ولم اكن لادرك للاسلام ثائراً من الشرك
وابرد من صهب العثمانين غلتي واشفي واستشفي بسيفي من الترك [٥]

أما الشاعر صالح القزويني البغدادي فقد هجا الحكام الترك هجاءً لاذعاً – نذكر منها للمثال – قوله :

وكم لملوك الترك هتك حرمة لاهل النهى والهتك من شيم الترك [٦]

ولم نجد من شعر هجاء الحكام العراقي غير بغداد من تبحراً على هجاء الترك بهذه الجرأة والعلانية – كما سنرى – فيما يأتي ، فضلاً عما فيها من قوة سبك وحسن معاني وكثرة هجاء ٠٠٠ على ان لهذا الوجه من الشعر السياسي البغدادي المعارض للحكام وجهاً أخر هو الشعر المساير للدولة والمادح للحكام والمتزلف للسلطة ، وهو لا يقل كثرة وقوة وصوراً من شعر الهجاء السياسي ٠

فالشاعر (صالح التميمي) الذي كان من معاوني الوالي (داود باشا) ومقربيه مدحه بقصيدة طويلة اشاد فيها ببطولته حين شن حملة ظالمة على قبائل شمر وخزاعة العربيتين وأبادهم ، لانهم بزعمه قد تمردوا على الحكومة

والدولة وعدهم خوارج أرضاءً له في قصيدة طويلة فيها الكثير من التعاطف وقوة السبك وحسن المعاني ، بغض النظر عما فيها من تملق والتي قال في قسم منها :-

أبلغ خزاعة والخوارج شمراً نصحي وما قولي بقول كاذب

أين المفر ولا مفر أذا دنا من حيكم سهم الوزير الصائب (٧)

ثم قصيدته التي مدح بها الوالي (علي رضا باشا) عند فتحه قلعة أربيل وضرب أهلها ، والذي عده الشاعر أعظم من فتح المعتصم لعمورية ، حين قال في قسم منها :-

لا ترو عن فتح (عمورية) خبرا ففتح (اربيل) ما ابقى لها اثـــرا

لو ان (معتصماً) تدعوه صارخة بقطر اربيل عن ادراكها قصـــــرا

دع ما سمعت وحدث بالذي نظرت عيبناك فالصدق مقرون عن نظرا

وان من خالف السلطان ماربحت يوماً تجارته بل انما خســـرا

صيرت عاليها بالنار سافلها من كان مقبراً فلينظرن غبـــــرا (٨)

أنلاحظ هذا الاندفاع والانبهار بالوالي والاندماج به ومسايرته وصدوره عن تعلق حقيقي بالولي ، يسوقه الى ذلك حكم عمله ، وظهر ذلك كله في قوة السبك وصدق اللهجة ورقة العاطفة ودقة التعبير وحسن الوصف .

اما الشاعر (عبد الباقي العمري) الموصلي الاهل البغدادي السكن الذي كان موظفاً كبيراً في حكومة بغداد ايام الولاة الذين عاصرهم ، والذي اشاد بهم في كل حملاتهم التي شنوها على المدن والعشائر العراقية التي كانت تتمرد عليهم تكلمهم وتعسفهم ، منها – مثلاً – قصيدته الطويلة في مدح الوالي (نجيب باشا) حين شن حملة كبيرة على كربلاء وأهلها وأجتياحه لها في ثاني ايام عيد الاضحى من عام ١٨٤٢م وقتل الكثير من ابنائها ولم يسلم منهم حتى من لاذ بمرقد الامام الحسين (ع) بسبب تمردهم على الدولة بحسب زعمه ... نذكر مثلاً منها قوله :-

بك العراق احرز الامانيـــــــا لما تقررت عليه والـــيا

قلدك السلطان سيف ملكـــــــه فقمت فيه آمراً وناهيـــا

للعدل في الزوراء رحت ناشـــراً مطازماً للجور فيها مطارحاً

رعيتها متمثلاً (لكلكـــــم راع) وفيك اعشوشبت مراعيـــا

مهدت بالهندي يوم كربـــــــلا هندية فأندرست مجاريــا

لقد تركت (الرفض) فيها ضفدعاً جفت سواقيه فمات صاديا [٩]

كذا الى اخـــرها ٠٠٠٠٠

ولكن الاكثر غرابة في هذا التأييد والمدح والاندماج بالحكام تبدو لدى الشاعر البغدادي (عبد الغفار الاخرس) لان (عبد الباقي) بحكم موقعه الوظيفي مضطراً الى ذلك التأييد والمدح ، ولكن ما عذر (الاخرس) في اندفاعه لتأييد الوالي في حملته على كربلاء وأهلها وهو من عرف بحبه لال البيت (ع) لكنه مدح الوالي بعاطفة شديدة ، مع جودة سبك وحسن تصوير حين يقول في قسم منها :-

لقد حففت في النحر الوية النصر وكان انمحاق الشرفي ذلك النحر

وفتح عظيم يعلم الله أنـــــــــه ليستصغر الاخطار من نوب الدهر

محا البغي صمصام الوزير كما محا دجى الليل في اضوائه مطلع الفجر

وقد فسدوا شر الفساد بأرضهـــم الى ان أتاهم منه بالفتكة البكر

رمتهم بشهب الموت منه مدافــع لها شرر في ظلمة الليل كالقصر

فراحت بها الاجساد وهي طريحة تداس على ذنب جئته لدى الوزر

فلاذوا بقبر ابن النبي محـــمد فهل سر في تدميرهم صاحب القبر

الى أن يقول :

ولازال في عيد جديد مؤرخاً (فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر) [١٠]

(١٢٥٨هـ)

هكذا رأى (الاخرس) ضربة الوالي لمدينة كربلاء ، ونحن هنا لا يعنينا موقف الاخرس من كربلاء ، بقدر مايعنينا توثيق رأينا بأرتباط (الاخرس) وشعراء بغداد بهذا النوع من الشعر السياسي وفي تأييد الولاة ، وما حملته أشعارهم من كثرة وعاطفة وصور شعرية وقوة اسلوب ٠٠ وقد اكتظ ديوان الاخرس وغيره من شعراء بغداد بمثل هذا النوع من الشعر السياسي وتأييد الحكام فضلاً عما فيها قوة عاطفة وشدة تأييد ٠ على ان هؤلاء الشعراء الموالين للسلطة والمادحين للولاة قد يطفح بهم الكيل احياناً لكثرة مظالم بعض الحكام على الناس فيجأرون بالشكوى ويندون بالحكام وسلوكهم من غير خوف ولا وجل ، مما يجرؤ علية غيرهم من شعراء العراق ٠٠ منها مثلاً من ابيات

للشاعر (عبد الباقي العمري) الذي يعلن فيها غضبه من بعض الحكام وشدة جورهم وكثرة فسادهم فيهجوهم هجاءً شديداً منها قوله مثلاً :

قد استحال العراق مفسدة ليس سوى السيف يصلحها

وأهله كالانعام عاث بها أذؤبة والكلاب تنبحها [١١]

ومنها قول الشاعر (الاخرس) الذي يصف بعض الحكام الاتراك أنهم بقر على شكل بشر منه قوله :

بلد كبار ملوكه بقـــــر صاروا ولاة النهي والامر

لايفقهون حديث مكرمة فيهزهم نظمي ولا نثري [١٢]

أن هذه اللهجة الحادة من الشعر السياسي المعارض لا نجد لها نظيراً – كما سنرى – من القوة والوضوح والصورة وصدق التغييير لغيرر شعراء بغداد في هذه الحقبة ، وحتى ما اذن القرن التاسع عشر بالانتهاء ويبزغ فجر القرن العشرين حين تستمر الاحداث تبقى بغداد وشعراؤها ماسكين بزمام الشعر السياسي دون غيرهم ويقودهم الزهاوي(ت١٩٣٦) والرصافي (ت١٩٤٥) والكاظمي (ت١٩٣٥) والشبيبي وعلي الشرقي وغيرهم من شعراء بغداد ٠٠ فقد نظم الزهاوي قصيدة ثائرة تحمل عنوان (حتام نغفل) سنة ١٨٨٨م (التي كانت اول قصيدة سياسية واعية سجلها شاعر عراقي) كما قال الاستاذ ابراهيم الوائلي في كتابه (الشعر السياسي العراقي / ص ٢٧) وقد قسم الدكتور يوسف الدين تيارات الشعر العراقي في القرن التاسع عشر في كتابه (الشعر العراقي الحديث) الى تيارين الاول – التيار البغدادي الذي اتصل بالسياسة التركية وحكامها في بغداد والثاني التيار النجفي الذي انعزل عن السياسة واحداثها حريصاً على كرامته وآثر عزة النفس وكرامة الامة [١٣] ويكفي ان نذكر ان الشاعر النجفي الكبير محمد سعيد الحبوبي (ت١٩١٥) الذي بدأ حياته دارساً للعلم والفقه ، ثم استاذاً لهما ثم مرجعاً دينياً كبيراً ، والذي انتهى مجاهداً ضدالاحتلال الانكليزي في حملتهم على العراق سنة ١٩١٤ ، ليس في ديوانه المطبوع في (صفحة ٦١٩) بيت واحد من الشعر السياسي ، اما اذا استعرضنا دواوين شعراء النجف الاخرى نجدها تكاد – هي الاخرى – تخلو من الشعر السياسي الا ما ندر بأبيات قليلة ٠٠ ولعل أجرأ بيت من الشعر السايسي النجفي هو قول الشاعر النجفي الكبير أبراهيم بحر العلوم الذي قال :-

بلد به يرشى علانية والمرتشي هو حاكم النجف

الا أنه مما يقلل من أهمية هذا البيت السياسة وعدم ضمه الى خانة الشعر السياسي أن هذا الشاعر نفذ الى هجاء حاكم النجف من خلال قصيدة طويلة مدح بها والي بغداد يتظلم فيها له لرفع ظلم وحيف اصابه من حاكم النجف له فيقول :

والي الولاة اليك مظلمتي اشكو اليك بعين الواحد الاحد

لرواقك الشاكون قد عمدوا وروانق عدلك مشرع العمد [١٤]

أما الحلة فان اكثر النفثات السياسية في صدرها خففت عنه الشعر البكاء والرثاء الديني والاجتماعي او شعر الشكوى من الزمان وندر فيها الشعر السياسي الاماً كان نجاملة او تزلفاً لحاكم ولعل اجرأ بيت من الشعر السياسي الحلي ما قاله السيد حيدر الحلي من شعر في الاخوانيات وليس في معرض السياسة شاكياً من تخلى بعض معارفه عنه – قوله :

لايفهمون المكرمات كأنها عربية وكأنهم اتراك [١٥]

ولعل أفضل قصيدة في المديح السياسي الحلي القصيدة التي نظمها حيدر الحلي في مدح الوالي المصلح (مدحت باشا) فقد جاءت فيها صور جميلة وصياغة موفقة ومشاعر طيبة ٠ ولكن مما يقلل من أهميتها السياسية ان الشاعر نظمها بناءً على طلب من احد اصدقائه من وجهاء بغداد ، على ان ينسبها لنفسه ليتقرب بها من الوالي ، ولم يكن للسيد حيدر الحلي حينذاك اية علاقة ولا مصلحة له لدى الوالي ، وانما جاءت جودة الابيات من قدرة الشاعر العالية ، ومكانة صديقه الوجيه لدييه فضلاً عما عرف به الوالي مدحت باشا من اصلاحات كثيرة لم يسبقه اليها احد من الولاة قبله ، ومنها قوله :

اثنت عليك بأسرها الدول وتشوقتك الاعصر الاول

واعدت للايام بهجتها فاليوم عمر الدهر مكتمل

وأرى المماليك يابن بجدتها بك شكرها كذاك متصل

اوسقها وفضلتها كرماً عنه يفيق السهل والجبل

ولئن اقمت بحيث انت وقد امنت بك الاقطار والسبل

والارض حيث تجوبها بلد والناس حيث تسوسها رحل [١٦]

الخ ٠٠٠ القصيدة ٠٠٠

أما (الموصل) – فقد ذكرنا انها لم تكن على خلاف مع الحكم في بغداد او الاستانة مثلما كان في الحلة والنجف ، كما كان للموصل نوع من الاستقلالية السياسية ، وكان أكثر موظفيها من ابنائها بل حتى من الموظفين الكبار منها ، ولذلك ابتعدت عن السياسة وشؤونها سلباً او ايجاباً الا فيما تفرضها المناسبات للقول كلام في مدح او هجاء اللذين لم يكونا لا ذعين صادقين او كاذبين وبمعان تقليدية ليس فيها جديد او تجديد او ابداع فني ، وليست ذات قيمة فنية او

ذات خيال ، فضلاً عن قلتها بسبب حياتها المستقرة نسبياً ، واتجهت في اكثر اشعارها الى الموضوعات الدينية ٠٠٠ وللمثال والموازنة – نذكر بعض الجيد من اشعارها السياسة المناويء او المادح لبعض الحكام والولاة الاتراك ، مما سنراه يفتقد الصدق والجدة والعاطفة منها مثلاً قوال الشاعر (مصطفى الغلامي) في هجاء بعض الحكام الاتراك مستخدماً بعض الالفاظ التركية الثقيلة :

ما قولكم ياعلماً (أردنة) في زمن لايشبه الازمنة

ترعد من انفاسه ركبتي ويقشعر الجلد منه سنة

هذا وذو كركين او ثالث يقول (بوقيش صار حقترنه)

والترك ان تدن لهم يبعدوا يصيحوا في غلمانهم (قاوسنة)

وان اعزوك بالفاظهم كانت – ورب البيت – مستهجنة [١٧]

وأنتم – اظنكم معي – اذا ادعيت ان هذا نقد ساذج ، فهو لا يرقى الى موقف حاد او كلام جاد ، فضلاً عن اللغة الركيكة ٠

اما شعر المدح السياسي الموصلي وان كان اكثر من الهجاء الا ان اكثره كان شعر مجاملة او مناسبات لا يشعر بعاطفة صادقة او علاقة حميمة بين الشاعر والممدوح ، كما تفتقد الصور الممتعة والمعاني المستحسنة ، فمن ذلك مثلاً قول الشاعر (يحيى العمري) في مدح والي الموصل عندما قضى على ثورات بعض القبائل العربية على حكامهم ، مما لا يدل على صدق عاطفة او حسن صور او جمال شعر ، منها قوله مثلاً:

ألم تعلم الاعراب وقع سيوفكـــــــــم وفي كل قفر موحش لهم قبر

(فمنتفق) لما ايدت نفاقهـــــــــــم وفرقتهم في البيد صرعى لهم عفر

(وشمر) لما شمروا الساق في الوغى غدوا ككلاب حين يلحقهم ذعر

واما (بنو لام) فكان يلومهـــــــــم لما نابهم قتل وحاق بهم امر [١٨] **وأحسب اني في غنى عن التعليق عما في هذه الابيات من ركة في اللغة وضعف في النسج ، وسلق على المكشوف للحاكم وظلم للاهل من ابناء البلاد من شتم صريح مما لايرقى الى قوة وصدق وحسن شعر بغداد السياسي ٠**

٢- الحلة – وموضعات الرثاء – :

الرثاء تعبير عن حالة نفسية تصيب الشاعر في مناسبة محزنة تهيج بها كوامن شجونه وتدفعه الى البكاء والاسى والالم ، وان البكاء والاسف يحتاجان الى الاعراب عنهما والتخفيف عن معاناتها ، فكأن الشاعر يعطي برثائه المبرر الذي يدفعه لذلك الحزن والجزع ، عما تعرض له من خسار ونكد او بسبب فقدان الاهل والاحبة او من الصالحين من الناس وسراتهم ، وقد تصب في مجرى الرثاء روافد اخرى غر فقدان الاهل والاحبة والمعارف ، منها مايتعرض له الشاعر من شعور بالاسى او الظلم او الحرمان فتكون مناسبات الموت والعزاء فرصاً لتفريغ الهموم والاهات الحبيسة فيتنفس الشاعر بها عن مكنونات احزانه والامه ٠٠٠

ومن هذا النوع ما وجدناه في الشعر الديني ومراثي الشعراء العراقيين لاهل البيت حيث ينفسون من خلالها عن الامهم وحسراتهم مما يعانون فيفرغونها في قالب من حزن تاريخي او من حزن جديد ٠٠٠

ويؤلف شعر الرثاء الحلي في هذه الحقبة الصورة الصادقة لهذا اللون من الفن الشعري ، ولقد ذكرنا فيما سبق ان الحلة كانت مدينة منكمشة على نفسها بسبب تعسف مكانها وانها اتجهت الى الرثاء تستعن به على الصبر والبلاء واتخذت منه متنفساً عما يجيش في صدرها من اورام او نقمة او ثورة ، ويبدو ان المدينة بعد اكثرت من الرثاء قد الفته وتكرار القول فيه حتى صارت تبدع فيه وتجيده صوراً ، ومعاني واسلوباً وتبلغ فيه درجة من الاتقان والجودة والنضج وصدق العاطفة وقوة التعبير ، ولعل في قوة العلاقات الاجتماعية التي بين اهلها ، وكثرة مجالس العزاء الاجتماعي والديني وتنافس الشعراء فيما بينهم للاستحواذ على استحسان الناس لاشعارهم بأجادتهم بهذا اللون من الفن الشعري وكثرة القول فيه أكسبها خبرة ونضجاً لا نظير له لدى شعراء بغداد والنجف والموصل ، فقد كانت فيها صور مؤثرة واخيلة طريفة وعواطف صادقة ٠٠ وهي من ناحية اخرى صارت اصدق اشعار الحليين واجودها مقالاً واقلها تكلفاً ولانها اقترنت بالعقيدة ومست الجانب الروحي في نفوسهم وان اول اشارة لتفوق الحلة في شعر الرثاء ونضجه ظهور شعراء كبار فيها عرفوا بأتقان هذا الفن واجادتهم فيه يتقدمهم الشاعر الكبير السيد حيدر الحلي (ت ١٨٨٧م) الذي كان فارس حلبة الرثاء العراقي غير منازع في هذا القرن بأجماع الدارسين والباحثين في ادب هذا العصر فقد كان يصدر عن نفس مكلومة وروح مهمومة ، فهو مرهف الحس ، رقيق العاطفة عاش في حالة من الضيق والحزن فضلاً هما لديه من شاعرية متقدة وموهبة شعرية عالية ، لذلك لم يجد ما ينفس عن احزانه غير استدرار الدموع والتخفيف من الالم الا في الرثاء حتى قيل أنه أشعر من رثي الحسين (ع) ، ومعنى هذا تفضيله في هذا المجال على الكميت ودعبل والشريفين ومهيار وكشاجم وغيرهم ممن عرفوا بالاجادة في رثاء الحسين (ع) ٠

ولو استعرضنا دووابن شعراء الحلة في هذا العصر لوجدنا ان شعر الرثاء يشغل مساحات واسعة منها ، وانه يؤلف الغرض الرئيس فيها ، فلا يخلو ديوان واحد منها باب المراثي بل وفي بعضها بابان للمراثي موجود – مثلاً – في دواوين مهدي السيد داود الحلي ، وصالح الكواز وحيدر الحلي وجعفر كمال الدين فضلاً فيها من حرارة في العاطفة

وصدق في الشعور ، وجمال في التعبير وقوة في التأثير ، حتى ان احد وجهاء الحلة حين سمع قصيدة رثاء مؤثرة ، خاطبه بقوله (ان رثاءك يحبب الينا الموت) ولغرض الموازنة واعطاء فكرة تطبيقية مقارنة عن تمكن شعراء الحلة من فن الرثاء وأجادتهم فيه فمن ذلك مثلاً رثاء حيدر الحلي لعمه السيد مهدي عندما فجع بفقده بقصيدة تخص بالالم والحزن والجزع مع قوة في السبك وشدة في التأثير ، حينما قال :-

أضبا الردى انصلتي وهناك وريدي ذهب الزمان بعدتي وعديدي

نشبت سهام النائبات بمقلتي فلحفظ ماذا اتقي عن جيدي

ماذا الذي يادهر موعدني به او بعد عندك موضع لمزيد

طرقتني الدنيا بأي ملمة ذهبت علي بطارقي وتليدي (١٩)

والقصيدة طويلة ولوعة الشاعر فيها واضحة وجزعة بين فهي تصور رجلاً مكلوماً ومحزوناً أده ثقل المصاب وعظم الكارثة وفداحة الخطب فصرخ الماً وناح لوعة ...

ومثلما رثى حيدر عمه السد مهدي ، فقد رثى الشاعر عبد المطلب الحلي عمه السيد حيدر عندما اصيب بفقده سنة ١٨٨٧م في قصيدة تضارع قصيدة عمه حيدر في عمه السيد مهدي في قوة عبارة وحرارة عاطفة وحسن سبك وصفاء ديباجة وجمال صورة ولكنها تميزت منها بأتسامها بالجلد والكبرياء وعدم الجزع وعدم شماتة الزمان ، حين قال في قسم منها :-

أهاشم قل بأن تجزعي وان تقرعي السن بالاصبع

أصاب عميدك ريب المنون وساءك للغيم ان تضرعي

وجشم عزك ذلاً وقال على لهوات الهو ان اهجعي

أليث قريش قرش البطاح وبيضة عزهم الامنع

وسعد العشيرة من هاشم ومقدام فيلقها المفزع

عهدتك والحتف ياحتفه متى يذكروك له يهلع

ومن عجب كيف كان انتحاك ومن فرق منك لم يرجع

أأمك من جملة الوافدين لحوض ندى كفك المترع

فجدت بنفسك مستحقراً صنيع ندى قط لم يصنع

ام اخترت داراً غدت في اتساع شبيه فضا صدرك الاوسع [٢٠]

يخيل الي اني لا احتاج الى تبيان ما في هذا الرثاء النفيس من صور جميلة واحاسيس ملتهبة فضلاً عما فيها من قوة السبك وصفاء الديباجة وحسن المعاني ... هذه امثلة قليلة من الرثاء الاجتماعي الحلي ، ومن اجل ان نقف على الوجه الاخر من الرثاء الحلي الذي اجاد به شعراؤها ، وهو الرثاء الديني وقدرتهم الفائقة في هذا الضرب من الفن الشعري ، نذكر أمثلة من هذا الرثاء البليغ الذي ضرب به الحليون بسهم وافر لم يبلغ مداه الرثاء في غيرها من مدن العراق الاخرى ، لننظر في هذه اللوحة من الشعر الديني الحلي للسيدحيدر الحلي مما قل نظيره في شعر الرثاء العراقي –على كثرتها – في رثاء الحسين (ع) ، منها قوله يصف موقف الحسين (ع) في كربلاء ومساومة الامويين له اما ان ينزل على حكم يزيد او يقتل هو واصحابه ، وقد اشتدت نار الحرب فأبى الحسين (ع) الاستسلام والنزول على حكم الطغاة – حين يقول احدى قصائده وهو يرثى الحسين (ع):-

وسامته يركب احدى اثنتين وقد صرت الحرب اسنانها

فأما يدي مذعناً او تموت نفوس ابى العز اذعانها

فقال لها اعتصمي بالاباء فنفس الابي وما زانها

رأى القتل صبراً شعار الكرام وفخراً يزين لها شانها

فشمر للحرب عن معرك به عرك الموت فرسانها

ركين وللارض تحت الكماة رجيف يزلزل شهلانها

تزيد الطلاقة في وجهه اذا غير الخوف الوانها

حتى يصل الى وصف ساعة استشهاده حين يترجل للموت من على ظهر جواده لملاقاة الاجل المحتوم وهو فرح بالشهادة فرح العاشق بمعشوقه ، لننظر لهذه اللوحة الرائعة التي رسمها لهذا المشهد بريشة الفنان المقتدر – حين يقول:

ولما قضى للعلى حقها وشيد بالسيف بنيانها

ترجل للموت على سابق له اخلت الخيل ميدانها

ثوى زائد البشر في صرعة له حبب العز لقيانها

كأن المنية كانت لديه فتاة تواصل خلصانها

وحين يصل الى هذه المرحلة من رسم الصورة يتصاعد فيه الحماس فيهتف بنبرة حزينة ويئن انين المفجوع :-

أتقضي فداك حشا العالمين خميس الحشاشة ظمآنها

ألست زعيم بني غالب ومطعام فهر ومطعانها

فلماغفلت بك اوتارها ولست تعاجل امكانها

وهذه الاسنة والبارقات أطالت يدالمطل هجرانها

وتلك المطهمة المقربات تجرعلى الارض ارسائها [٢١]

وأخيراً للنظر لهذه اللوحة الرائعة من شعر الرثاء الحلي بأبيات للسيد الحلي ايضاً وهو يصف (سيف الحسن) في يوم كربلاء :-

سطا وهو احمى من يصون كرامة وأشجع من يقتاد للنصر عسكرا

ورافقه في حومة الضرب مرهف على قلة الانصار فيه تكثر

تعثر حتى مات في الهام حده وقائمة في كنه ما تعثرا

كأن أخاه السيفأعطى صبره فلم يبرح الهيجاء حتى تكسرا [٢٢]

هذه هي الحلة في رثائها : نما في غيرها أما اذا استعرضنا – مثلاً – شعر الرثاء في (النجف) فأننا لن نجد فيه من قوة السبك وصدق الحزن وجمال التعبير وحرارة العاطفة ما وجدناه في رثاء الحلة ، فضلاً عن قلته فيها قلة ظاهرة .. على اننا لا نعدم وجود رثاء جيد الا انه لا يضارع رثاء الحلة ولا في جودته الفنية وعلى سبيل الموازنة وللمثال نذكر بعض أشعار الجيدمنها لكبار شعرائها ممن أصيبوا بفقدان الاهل والاحبة او من الرثاء الديني :-

فمثلما رثى كل من حيدر الحلي وعبد المطلب الحلي عمهما ، فقد رثى الشاعر (أبراهيم بحر العلوم) وهومن كبار شعراء النجف أباه في قصيدة تفتقر الى الكثير من الشعور بالاسى والاحساس بالالم ، ولا في جمال صوره ، ولطف المعاني فالسيد ابراهيم في رثائه لابيه اراد ان يرثي الدهر ليبقي له اباه اذا كان يرثى ،ولكنه لم يجرأ على مفاتحة الدهر بموضوع الرثوة ،لان الدهر كان قد طرح حبائله على الارض فأذا هي افاعي رقش (تهش هشياً وتنهش نهشا)

لنسمعه يقول في مقطع من قصيدته في رثاء أبيه :

رشيتك يادهر لو كنت ترشى وأخشاك والدهر يرجى ويخشى

طرحت السبائك مبثوثة على الارض تسعى افاعي رقشا

رواعش تهتز مثل الصلال تعش عشاشاً وتنهش نهشا [٢٣]

ويبدو ان الشاعر هنا لم يكن همه رثاء ابيه بقدر محاولته صياغة مقطوعة سيئة الزخرفة وليس فيها ما يشعر بجزن او الم بفقده لابيه ٠

كما رثى الشاعر النجفي الكبير (موسى الطالقاني) (أباه في ابيات لا تمتاز عن ابيات بحر العلوم بغير ضحالة العاطفة وسوء السبك ورداءة التعبير حين يقول):-

أنه سيبكي دائماً حين تجف الدموع وانه سينعاه الدهر كله وان البدر لن يشرق بعد اليوم حزناً على ابيه وانه يرى الناس في الشوارع كلها قد اطالوا النواح على ابيه هكذا رثى الطالقاني اباه في قسم من ابيات رثاء ابيه :-

سأبكي وان كان البكا غير نافع دماءً اذا جنت دموع مدامعي

وأنعاك عمر الدهر حتى تلين لي قلوب خطوب لا تزال قوارعي

رحلت فلا بدر السما المطر علينا ولا رحب الفضاء بواسع

اقلب طرفي في الانام فلا ارى سوى من يطيل النوح في كل شارع [٢٣]

وللشاعر النجفي (محسن الخضري) ثلاث قصائد قصيرة في الرثاء الديني في ديوانه الواقع في (١٩٦) صفحة ، افضلها قوله في رثاء الحسين (ع) ، الا أننا أذا قرأناها شعرنا بأنحسار العاطفة وركاكة السبك وسوء الصور ، منها مثلاً قوله :-

أين الذين تبوؤا بعراصها غرفاً تبوأت الشآم ظلالها

قذفت بهم نحو العراق فأصبحت قفراً وقد طمس البلى اطلالها

بأبي الذي ما انحاز نحو مفازة الا ونازعه (ابن سعد) الها [٢٤]

وكذا ٠٠٠الى اخرها ٠٠٠

على ان من اجود الرثاء النجفي ما جاء في أبيات للسيد محمد سعيد الحبوبي في رثاء صديقه السيد حيدر الحلي بسبب مقدرة الحبوبي الشعرية العالية من جهتة ، ومن علاقته الوثيقة بصديقه من جهة اخرى ، احتزىء قسماً منها وهي اجود رثاء للسيد الحبوبي منها قوله :-

أبن لي نجوى لو تطيق بيانا الست لعدنان فماًولسانا

وابلغ خطاباً فالبلاغة سلمت لكفيك منها مقوداً وعنانا

وجل ياجواد السبق في حلباتها فهاشم سامت للسباق رهانا

صرعت وما خلت الردى يصرع الردى لعمري وما يفنى الزمان زمانا

فيا صارماً لاقى من الموت صارماً بلى وسناناً ذات منه سنانا [٢٥]

هذا من اجود الرثاء النجفي ،فهو حسن السبك سالم الاداء ، الا انه يفتقد العاطفة او اللوعة الظاهرة انما يظهر السيد الحبوبي هنا يؤدي واجب الصداقة ، فلم يصور عن نفس ثاكله وقلب محزون ، كما وتفتقد الاسى والحزن الذين وجدناهما في رثاء كل من حيدر الحلي وعبد المطلب الحلي في عميهما مما حملتا من صدق القول ولوعة في العاطفة وشدة في الحزن وحسن في الصور ، على انا هنا نود ان نضيف ان ديوان الحبوبي قد خلا خلواً تاماً من اية قصيدة من شعر الرثاء الديني على مكانته الدينية العالية فضلاً عن قلة الرثاء في شعره بشكل عام ٠٠٠

أذن فمما تقدم ان شعر الرثاء النجفي لا يلحق برثاء الحلة الاجتماعي والديني في كثرة قصائده وحسن صوره وصدق عواطف ٠

أما (بغداد) فقد كان فيها مايلهيهم عن البكاء والرثاء وذلك بأشتراكها في الحياة العامة والاتصال بالحكام والوجهاء وحضور مجالس الانس واللهو ، وذلك اذا اصيب احدهم بعزيز جاءت مراثيهم فيه باردة مقتضبة تنحسر فيها العاطفة ، فكان شعر مواساة ومجاملات لاهل الفقيد فضلاً عن قلتها في الرثاء البغدادي ٠

ولعل في مرثية الشاعر (عبد الغفار الاخرس) وهو من كبار شعراء بغداد في رثاء صديقه مفتي بغداد (عبد الغني جميل) ما يؤكد زعمنا في تخلف رثاء بغداد من رثاء الحلة وابيات الاخرس هي من افضل الرثاء البغدادي وهذه بعض ابياتها للاطلاع والمقارنة حين يقول :

سأبكي واستبكي عليك البواكيا واسكب حتى عيني الدموع الجواريا

واصلي لظى نار الاسى كلما ارى مكانك ما قد كان بالامس خاليا

وان لم يكن يجدي البكاء ولم اجد علي الاسى من ذلك العهد ماضيا

خلت من (ابي محمود) دار عهدتها تضيء به ارجاؤها والنواديا [٢٦]

. كذا . ٠٠٠٠ الابيات

ان هذا النص – كما تراه – مليء بالتكلف وانحسار العاطفة وهو اقرب للنظم منه الى شعر الحزن والاسى ٠٠٠

اما الشاعر البغدادي الكبير (صالح التميمي) فقد رثى الحسين (ع) بقصيدة باهتة لا تتعدى الرصف والتكلف حين قال :

سلوا كربلا عن مدمعي وانهما له وتلويع قلبي بالاسى وأشتعاله
والا فلا تستغربوا عبرة جرت وللطرف تجفو عن نظير اكتماله
فما انا بالباكي لاطلال (رامة) ولا مغرم في (عالج) ورماله
تذكرت ليثاً بالغري وفتية بطيبة غابت عن حريق أشتعاله [٢٧]

– كذا – الى أخره ٠٠٠٠

اما الشاعر الكبير (عبدالباقي العمري) الموصلي المولد، البغدادي السكن فقد نظم قصائد كثيرة في الرثاء الديني ورثاء ال البيت في ديوان كامل سماه (الباقيات الصالحات) الا انه لم يسر في اي منها روح الشعر او توقد عاطفة انما كان نظما ضعيف النسج ركيك ابعاده مما لايدل على مقدرة له في فن الرثاء لنسمع – ولغرض المثل والموازنة – قوله في افضل قصائده في رثاء الحسين (ع) :

قضى نحبه في كربلا ابن حاشر ولن ينقضي نحبي عليه الى الحشر
قضى نحبه في يوم عاشور من غدت عليه العقول العشر تلطم بالعشر
قضى نحبه في الطف من فوقه طفا نجيع كسا الافاق بالحلل الحمر
قضى نحبه في حائر فتحيرت دموع بني الدنيا على وجنة الدهر [٢٨]

– كذا – الى اخر الابيات ٠٠٠٠٠

ولا اراني في حاجة الى ما في هذا الرثاء من الركة وخمول الصور واختفاء العاطفة في لغتها الركيكة والتكرار الممل علماً اني لااشك في حب العمري لآل البيت انما هي قلة في اتقان هذا الفن٠

وهكذا لم نجد في مراثي بغداد ماوجدناه في مراثي الحلة من صدق في المشاعر وجمال في الصور ، واتقاد في العاطفة وكثرة في الرثاء ٠

اما (الموصل) فقد قل شعر الرثاء فيها بشكل يصعب على الباحث العثور على امثلة جيدة منه الا النزر اليسير مما لايستحق التسجيل لانه كلام تقليدي وتعداد الصفات والمبالغة في مآثر المرثي من زهد وتقى وكـــرم –

وللموازنة وللمثال نذكر هنا ابياتاً للشاعر الموصلي (حسن عبد الباقي) في رثاء الحسين وهو من افضل رثاء الموصل اومن جيد رثائهم حين يقول : –

يوم قتل الحسين كيف استقرت هذه الارض بل وسبع الطباق

ايها الارض هل بقى لك عين ودماء الحسين بالاهراق

كيف لا تنسف الشوامخ نسفاً ويحن الوجود للامحاق [٢٩]

ولا شك في اننا نلحظ التكلف الشديد في هذه الابيات والمبالغة المفرطة وانعدام الصورة وغياب الحزن او الاسى مما يدل على عدم قدرة الشاعر في هذا الفن ٠٠٠

وهكذا نجد ان رثاء الموصل لا يرقى الى رثاء الحلة او ينافسه في كثرة او نضج او صور او عاطفة او خيال ٠٠٠

ومما تقدم من امثلة من مراثي شعراء النجف وبغداد والموصل نستطيع ان نقرر ان مدينة الحلة قد اختنعت بالاجادة بفن الرثاء دون غيرها ولم تطاوله فيه غيرها في كثرة وابداع وصدق وصور وحسن سبك وجمال تعبير ٠٠٠

٣– النجف – وأشعار الفكاهة والغزل والخمر والهزل :–

قلنا أن بغداد أنشغلت بالسياسة واحداثها فأجادت بالشعر السياسي وفاقت فيه غيرها وتميزت الحلة بتفوقها بشعر الرثاء على غيرها من مدن العراق ٠

اما النجف فحين ابتعدت عن السياسة وشؤونها او قل ابعدت عنها وحرم ابناؤها من التوظف في دوائر الدولة أتجهت الى تسلية نفسها بالفكاهة والهزل ودارت همومها بأشعار الحب والخمر والغزل وفتح الوجهاء بيوتهم للقاء الاصدقاء في جلسات السمر وفي هذه المجالس انبعث شعر الطرافة والفكاهة ومن كثرة ماينظمونه في الغزل والهزل أكتسبوا قدرة فائقة بالاجادة به والابداع في صوره واخيلته وطرافته وجمال اساليبه ، فأنبعث في تلك المجالس مجاميع من دور شعر الطرافة والفكاهة والكثير من المساجلات الشعرية والمعارضات والمسابقات الادبية وسيل من قصائد الغزل والخمر ٠٠٠

ولو أستعرضنا دواوين الشعر النجفي في هذه الحقبة من تاريخها لوجدنا ان شعر الغزل والهزل والفكاهة والخمر والمعارضات الشعرية والمباريات الادبية يشغل مساحات واسعة كبيرة فيها من كثرة ونوع وجودة وابداع وخيال ولطف ، وان شعر الغزل واللهو اوالفكاهة كان في بداياته تقريباً مقصد به مزجية الوقت وملء الفراغ الا انه بالممارسة وكثرة القول فيه والمنافسة بين الشعراء في مجالسهم الادبية والالحاح في نظمها بكل انواعها حتى اعتاد الناس عليه حتى الوجهاء ورجال الدين وعلية القوم ، ومنهم المتفقهون المتدينون الذي صار ينشد فيهم او امامهم في مناسبات الرجوع من الحج او في افراح الزواج وامثالها ٠ فأنساق الناس وراء هذا التيار اذا هو بغدو بعد فترة وجيزة طبعاً في

النجفيين ، وصرنا نقرأ لشعرائها الجميل من شعر الفكاهة والغزل ،ولاسيما ممن عرف بمرحه والهامه بالجمال والسعي وراء الحسن اينما وجدوه في وجه غلام مليح او في الطبيعة او لمحة امرأة جميلة في اسواقها حتى عرف من شعراء النجف من احب حباً حقيقياً واخلص لمحبوبة واحدة ، وطلب الاقتران بها فلم يحصل على طلبه مرض ومات عشقاً كالشاعر (عباس ملا علي النجفي) الذي اكدت كل المصادر التي كتبت عنه، وديوانه شاهد على ذلك ، وليس من باب الصدفة ، أن يقول الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه (نهضة العراق الادبية في القرن التاسع عشر) (أن الفقيه المجاهد محمد سعيد الحبوبي) (كان اغزل شعراء عصره) مقدماً اياه على كل شعراء العراق في فن الغزل والخمريات والموشحات الغزلية ، لذلك حقق شعراء النجف سبقاً في هذا الفن ، وانهم حازوا نصب السبق فيه واخذوا بزمامه دون شعراء المدن العراقية الاخرى ، فقد اغنوه ضوراً وملؤوه خيالاً ، واصدقوه عاطفة ، فضلاً عن كثرته في دواوينهم ، ولعل ثمة سؤال يدور في الذهن كيف امكن للنجف وشعرائها ان تكون رافعة للواء الغزل والهزل والفكاهة والخمر في هذه الحقبة في الوقت التي كانت فيها اكبر المرجعيات الدينية العليا ومقراً للدراسات الدينية والفقهية في العراق بل وفي العالم الاسلامي !!

الجواب :-

أولاً : هو الاستعداد النفسي الكامن في نفوس النجفيين في حب النكتة والفكاهة والمرح ، ثم في الظروف الاجتماعية والسياسية فضلاً عما توفر لاكثرهم من اليسار والثروة وكثرةالفراغ في حايتهم ومعلوم انه اذا اجتمع الفراغ والشباب والثروة سيؤدي الى اللهو والعبث واصطناع اشعار الحب والغزل والفكاهة والهزل ولاسيما في مجالس السمر ، حتى قام فيها شعر الفكاهة والهزل والغزل الخمر الى جانب الفقه والتفسير والحديث والدراسات الدينية تماماً كما حدث لابناء الحجاز في القرن الاول الهجري حيث قام فيه الفقه والحديث الى جانب الغزل واللهو بسبب تشابه الظروف الموضوعية بين البيئتين حين انتقل مركز الدولة من الحجاز الى الشام وابعاد اهل الحجازين من المشاركة في الحكم ، ولغرض الهاء اهل الحجاز وأبعادهم هن الحكم تركوا لهم حرية اللهو والغزل وصرف انظارهم عن السلطة اوتطلعهم للحكم ، وهذا ما حصل للنجف والنجفيين في مرحلة القرن التاسع عشر ، فمثلاً ان الشاعر النجفي الكبير أبراهيم بحر العلوم وهو من اسرة علمية واجتماعية عريقة كان له من خفة الطبع مما خلقت له صورة مصغرة من عمر بن ابي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتناه به والذي كانت تأسره الصبابة وتستهويه الملاحة ولكن من غير ان ينتهي الى مجون او فسق لان الدين كان يملك زمام نفسه ويكح جماح شهوته ، وهكذا باقي شعراء النجف ، ولعل مما ساعد النجف في تلك الحقبة في الميل الى الغزل انها لم تكن محرومة من رؤية المرأة فقد كان يقصد النجف الالاف من الزائرين والدارسين وطلاب العلم ومعهم عوائلهم من داخل العراق وخارجه ، وكان منظر النساء مألوفاً في المنازل والاسواق والطرقات ومحطات النقل ، واماكن الزيارة ورؤية مما تحمل الكثير منهن من صباحة وملاحة ما يوقد العاطفة ويلهب الشوق وتثير كوامن النفس أمكننا ان ندرك سبب كثرة اشعار الفكاهة والغزل واللهو والهزل وللمثال والتوضيح والموازنة نذكر أمثلة من شعر الغزل والفكاهة :-

لقد أحتل الغزل مساحات واسعة في دواوين شعراء النجف وفي المجموعات التي سجلت الشعر النجفي بما فيه من عواطف صادقة وصور جميلة وأخيلة طريفة مما يجعل قراءته ممتعة وسجلاً لذكريات وجلسات طريفة وجلسات المجالس والاندية الاجتماعية والاسرية التي انتجت تلك الاشعار وقد اجاد في هذا الفن كبار شعراء النجف مثل السيد محمد سعيد الحبوبي ، وأبراهيم بحر العلوم ، ومحسن الخضري ، وعباس ملا علي ، وموسى الطالقاني ، وجواد الشبيبي ، وغيرهم الكثير ، وطبيعي أن باحثاً يتحدث عن الغزل النجفي لا يستطيع يتخطى أكبر شهرانها السيد الحبوبي صاحب الموشحات الغزلية الشهيرة حتى فضل الدكتور محمد مهدي البصيير أربعاً من موشحاته على كل ما نتجه الوشاحون القدماء بينهم لسان الدين بن الخطيب وابن زمرك الاندلسي وابن سناء الملك وصفي الدين الحلي [٣٠] كما ذكر الدكتور رضا القريشي في كتابه (الموشحات العراقية) (أن الحبوبي بزَ الوشاحين العراقيين جميعاً وبلغ فيه مالم يبلغه وشاح قبله) [٣١] ، فضلاً عما فيها من روح غزلية شفافة وأشواق حقيقية وعواطف صادقة وذكريات حب قديمة .

على أننا هنا لسنا بصدد الخوض في صدق غزل الحبوبي وعدم صدقه ، وانما نريد ان نقول ان غزله الرائق يؤلف رافداً مهماً من روافد الغزل النجفي الذي تفوقت به على غزل المدن العراقية كثرة وتنوعاً وجمال صور وروعة تعبير وصدق عاطفة .

– وللمثال – نذكر مقاطع من احدى موشحاته الرائعة التي يذكر فيها ايام تعرفه على فتاة محبوبة له في الحجاز ايام شبابه حين كان يذهب مع اخواله في التجارة في نجد واحبها حين كانت مع مجموعة من الفتيات ، وعرفت الفتيات بحبه لها ، الا انها كانت تمتنع عن مواصلته لانه شبب بها واذاع سرها فأغتاضت وآلت الا تواصله ، فوسط لها رفيقاتها يسترضينها وهي تمتنع ، حتى لانت وضربت له موعداً في (ذي سلم) فوافته ليلاً حين اسدل الليل سدوله وحجب العاشقين عن اعين الوشاة فتمتعوا بليلة وصال جميلة – لنستمع الى مقاطع من تلك الذكريات الجميلة والصور الممتعة :–

لي فيهم غزال ربرب ليس لي غير هواه مذهب

لا ولا عن داره منقلب

قلن لي علك يا بادي الشجن ذلك الصب (العراقي) وطن

مولع القلب تسأل الدمن

قلن ما (اسما) امنحيه الغزلا وصليه فهو من خير الملا

فأنثنت كثيراً وقالت ولد

كان لي سر لديه مودعا ضمن الكتمان فيه ثم باح

ولقد شبب بي حتى سعى بي في سر التصابي لا فتضاح

ثم قد ناشدتها يالذمم وتلطفن بطيب الكلم

فأن لي الموعد في (ذي سلم)

فأنتظر حارسها ان يهجعا ورعاة الحي ان تأتي المراح

فأنت ترسل وحقاً ذا غدر ما حيا ماسحبته من اثر

فهي نجم بل هلال بل قمر

بل هي الشمس اضاءت مطلعا ويدت واليل منشور الجنالح

ولقد بننا لريب قريب المضجعا بيننا ستر عفاف ووشاح [٣٢]

واذا كان الحبوبي قد هام بمحبوبة نجدية ، فان (الشاعر جعفر الشرقي) قد هام بفتاة مسيحية رآها في بغداد لنقرأ بعض ابياته التي تطفلح بالعراقة والظرافة حين يقول :-

حي اقمار النصارى تخذت في الكرخ دارا

وضباء في كناس ما تألفن النقارس

بي غريران جفون هن كالسيف غريران

قلت اذا قالت سوارى ماله عني توارى

معصم يدعو عليه كل من صاخ السوارا

انت يا اية عيسى بل اصبحنا نصارى

اين خلخالك لك قالت غاض في الساق وغارا [٣٣]

اما الشاعر (جعفر كمال الدين الحلي) الحلي المولد النجفي السكن فهو يرسم صورة طريفة ممتعة للمحبوبة التي تسللت له ليلاً في الفلس خشية اعين الرقباء بهذه الابيات التي تتسم بلطف النغم ورقة الجرس وطرافة المعنى وخفة الروح وحسن الخيال ، حين قال في قسم منها :

بالفلس أنسلت الى حبيبها تخطو وعيناها الى رقبيها

ساحبة الاردان في مرابع ارجاؤها تعطرت من طينها

فرشت خشيت لها لكنني حشيت ان تحرق من لهيبها (٣٤)

تلك كانت حبيبة جعفر كمال الدين التي اخلصت لحبيبها ووافته ليلاً ، ولكن (نساء السماوة) لم يرحمنه عندما نزل فيها ضيفاً ، فاستغاث بأهل السماوة ليخلصوه من نسائها وفتنتهن واللواتي فتكن به ، حين قال :-

أيا أهل السماوة خبروني اما فيكم فتى يأوى المخوفاا

فتلك نساؤكم من غير ذنب على لحاظها سلت سيوفا

وما كنا من العشاق حتى نزلنا في بلادكم ضيوفا (٣٥)

كما شكا السيد جعفر ايضاً من مرارة وحرارة العشق – حقيقة او تظرفاً – كما يقول المثل (ويل للشجي من الخلي) ومن لوم العذال للعشاق ممن لم يعرفوا الام الحب ومعاناة العاشقين ، حين يقول :-

يظن المعافة ان داء الهوى سهل فهان عليه قوله لم لا تسلو !

ومن جهله بالحب بات بصحة وكم صحة للمرء سببها الجهل

خليون ما غصت يبين لهاتهم ولا حجبت عنهم سعاد ولا جمل

ولو رفرفت تلك الجعود عليهم لهيمهم ذيالك الشعر الجثل (٣٦)

اما السيد (موسى الطالقاني) الذي ذكرت عنه المصادر انه كان عالماً فاضلاً ، فأن قلبه – كما يدعي – يجري وراء الملاح ولكنه لا يعود منهن الا مثخناً بالجراح ، حين يقول :- يا قلب حتى م وراء الملاح تصفت من وجدك راحاً براح

كم راعك الهجر وكم جئتني من مرهف الاجفان تشكو الجراح

جد الهوى ياقلب فاجرع بـه كأس حمام مابها من مزاج (٣٧)

- وكما ذكرنا – ان بعض شعراء النجف عرفوا بحبهم لمحبوبة واحدة وتعلقوا بها واخلصوا لها وظلوا يستعطفها لمواصلته ، منهم مثلاً الشاعر (عباس ملا علي) الذي اشتهر بقصة حب حقيقية – سجلتها كل المصادر التي تحدثت عنه من معاصريه ، فقد قيل انه عشق ابنه أستاذه وطلبها من اهلها ولكنه لم ينل مطلبه فمرض ومات كمداً وحبا،

وديوانه المطبوع كله حسرات وآهات – وللمثال – نذكر من حسراته وتوسلاته بان تصله ، حين يقول من احداها :-

ج

ما الذي ضرك لو عدت فتى عد ايام اللقا يامي عيدا

وتعطفت على ذي ارق لم تذق بعدك عيناه الهجودا

و لايام النوى ان تنقضي ولايام نقضت ان تعودا

لم يدع بينكم لي جلداً ولقد كنت على الدهر جليدا (٣٩)

ولا أستطيع أن أختم الحديث عن عباس ملا علي وتوسلاته من غير أن أشير الى قصيدته المشهورة الى وجهها الى الحبيبة وهو على فراش المرض ، وهي طويلة نجتزيء منها :-

عديتي وامطلي وعدي – عديني وديني بالصبابة فهي ديني

سلي شهب الكواكب عن سهادي وعن عد الكواكب فأسأليني

صلي دنفاً بحبك اوقفته نواك على شفا جرف المنون

اما وهوى ملكت به فؤادي وليس وراء ذلك من يمين

لانت اعز من نفسي عليها ولست ارى لنفسي من قرين

اما لنواكم امد فيقضي اذا لم تقض عندكم ديوني

وكنت اظن ان لكم وفاء لقد خابت لعمر ابي ظنوني

اعاذلتي دعي عذلي وذوقي بهم ماذقته نجم اعذليني

اذا ما عن ذكركم علية يكاد يغص بالماء المعين (٤٠)

ب- <u>شيوع روح الفكاهة والنكتة والمداعبة</u> :

وهي من مظاهرروح النجف المرحة ومهارتهم فيه – قلنا – أن النجفيين حين ابعدوا عن الحياة العامة شعروا بفراغ كبير فراحوا يزجون اوقاتهم بأصطناع الحب وقصائد الغزل التي كان شعراؤها ينشدونها في مجالسهم الادبية ومسامراتهم الليلية وفي مسجالاتهم الشعرية مما ليس له نظير في مدينة عراقية اخرى ..

فمن ذلك – مثلاً – ما ذكره (جعفر الخليلي) في كتابه (العوامل التي تجعلت من النجف بيئة شعرية (٤١) أن القادمين من الحج من النجفيين عادة ما يجلبون هدايا لمن يبأتي لتهنأتهم ، فقد احضر احد الحجاج مجموعة من الخواتم القاها في وسط المجلس وقال لهم فليختر كل واحد منكم خاتماً على ان يدفع ثمنه بيتاً من الشعر او اكثر فيه طرفة او نكتة ، فأخذ كل واحدمنهم خاتماً ، وقال بيتاً او اكثر من الشعر وفيه نكتة ، فمن ذلك قول الشاعر (عبد الحسين الحلي) الذي قال :-

القى الخواتيم لنا فأتثرت حتى تنافسنا عليها معه

فلا تسل عنا فكل واحد (ادخل في خاتمه اصبعه) [٤٢]

وحين يتزوج احد اصدقاء الشاعر جعفر كمال الدين امرأة مطلقة في الاربعين من عمرها فأنه يجدها مناسبة للدعابة فيقول :

بشراك في لؤلؤة مثقوبـــة انفع من لؤلؤة لم تثقـــــــــــب

ومهرة وطأ شخص ظهرها احسن من لم تركـــــــب

مرت علها اربعون حجة فهي اذن جامحة كالصارم المجرب [٤٣]

الى اخر هذه الابيات الظريفة ...

ولكن السيد كمال الدين – الذي عرف بحبه للنكتة يصف تلامذة استاذه (محمد الشربياني) الذي كان هو احدهم :-

للشربياني أصحاب وتلمذة تجمعوا فرقاً من هاهنا وهنا

ما فيهم من له علم بمعرفة يكفيك افضل كل الحاضرين انا [٤٤]

ـــ وكذا ـــ

اما حين يسطو (هر) على عشاء كان قد دعي له السيد كما الدين ويقلب قدور الطعام فأن السيد يشعر بالاسى العميق لحرمانه من العشاء المنتظر ، فيرثي ذلك العشاء المؤلف من (مطبق التمن والكشمش واللحم بهذا الرثاء الحزين):-

وأسفي على العشا مطبقاً مكشمشا

قد ظفر الهر به ونال منه مايشا

لما اتى العبد رأى طبيخة مخربشا

وقال ويل الهر لا يعلم فيمن بلشا

وانتفخ الهر ومد ذيله واتتفشا

فالتقيا واعتركا واصطدما واحتوشا [٤٥]

تقد شاعت هذه الشينية لدى النجفيين وصاروا يتنهرون بها يتندرون في مجالسهم مما يدل على شيوع روح المرح والفكاهة في النجف في هذه المرحلة ٠

اما الشاعر (جواد الشبيبي) فقد كان يرصد النكتة والنادرة اينما كان مكانتها ٠ قال جعفر الخليلي (ان نوادرالشيخ الشبيبي من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات لو تصدى احد لجمعها) ، من كثرة ما عرف عنه من حب المرح والدعابة ٠٠ فمن اطرف احدى دعاباته مزاحه مع صديق له تزوج وهو في الثمانين فهنأه بهذه الابيات الطريفة :-

حصانك في الثمانين صاهـــــل فمن ذا يجاريه ومن ذا يطاول

وسائله ماذا تحاول فتحـــــــه فقلت لها فتح الحصون يحاول

فقالت : أبا لسيف الذي هو حامل وماسبفه في الروع الاحمائل

ومن عجب ان الصياقل لم تكـــن تعالجه بل عالجته الصيادل

وبعد ايام من زواج الشيخ الاول ، تزوج صديق اخر له ، وكان هو الاخر شيخاً مسناً فأغتنم الشبيبي هذه الفرصة وقال ساخراً :-

أتاك العاهل الثاني عقيب الصاهل الاول

اردنا منه امهالاً على الوثبة فأستعجل

وحين يتزوج صديق اخر له على هذا النحو مع الفارق في السن نظم الشبيبي ابياتاً اخرى على غرار الاولى والثانية ، وقال في افتتاحها ساخراً (أتاك الصاهل الثالث)٠٠الخ ولكن حين اقدم المرجع الديني الاكبير (السيد ابو الحسن) على ذلك النحو من الزواج ، ينفجر الشبيبي ساخراً :-

أتاك الصاهل الرابع فهن الشرع والشارع

ثمانون لعشرين فأين القدر الجامع [٤٨]

و(القدر الجامع)هو من مصطلحات الفقهاء وأهل الشرع ، فاذا تذكرنا أن(الصاهل الرابع) كان من كبار رجال الدين أدركنا خطورة جرأة الشبيبي وشدة تعلقه بالنكتة والنادرة ٠٠٠

ومن مظاهر حب النجفيين للنكتة والفكاهة أنهم يترصدونها في كل مناسبة ، حتى فيي مجالس العزاء ، فمن ذلك مثلاً أن مجموعة من ادباء النجف اتفقوا على معاكسة الشاعر (حيدر الحلي) حين كاان ينشد قصيدته البليغة في رثاء السيد (جعفر القزويني) في النجف في حفل حضره الكثير من ادباء الحلة والنجف اتفق النجفيون معاكسة السيد حيدر وانماظه مرافقيه من الحلبين قال :-

قد خططنا للمعالي مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا (٤٨)

وكان من المعروف ان الادباء والناس يستعيدون الابيات التي يستحسونها لكن النجفيين رغبة اتنفقوا الا يستعيدون بيتاً منها حباً في اثارة السيد حيدر وجماعته الحليين ، ولكن بعد أن رأي السيدحيدر صمت النجفيين وعدم استعادة اي بيت من قصيدته تلك ، غادر وجماعته الحليون جميعاً مباشرة بعد انهاء قصيدته غاضبيين ، فلحق بهم جماعته من النجفيين يسترضونها ويعتذرون ٠٠٠٠

وأذا كان النجفيون يترصدون النادرة والنكتة في مجالس العزاء ، فهم يرصدونها ايضاً حتى في مجالس العلم او الدرس ، ومما يذكرني هذا الباب – مثلاً – عندما صادف (السيد محمد سعيد الحبوبي) يلقي درساً في النحو على طلابه في احدى غرف الصحن الحيدري الشريف وكان يتكلم عن الحرف (قد) وقال انه اذا دخلت (قد) على المضارع فأنه يفيد التقليل والاحتمال ، فأنتبه احد طلابه الظرفاء النبهاء (الخبثاء) هذه الفرصة فقام وسأل استاذه – بأدب وأحترام – قلتم سماحتة الاستاذ : أن (قد) أذا دخلت على المضارع فأنها تفيد التقليل ، فما حكم (قد) اذا دخلت على فعل الماضي يا سماحة الاستاذ فرد السيد الحبوبي على الفور بقوله :-

(ما شربتها وجدي) وكان التلميذ قصد بذلك استاذه في احدى خمرياته :

قد شربت الخمر لكن كلمالك مارأت عيني ولا ذاق فمي

والنكتة في هذا السؤال ، ان (قد) أذا دخلت على الماضي فأنها تفيد (التوكيد) في قول الحبوبي (قد شربت) كذا ومن امثلة الظرف النجفي مما شاع ان احد وجهاء النجف (سعيد زاجي) قد طلب من الشاعر (جعفر كمال الدين) ان يجد له عبارة يحفرها على خاتمه فنظم له الشاعر عبارة فيها تورية لطيفة : وهي (بحب بني النبي سعيد ناجي) ، وكان في النجف وجيه اخر ينافس سعيد ناجي في الوجاهة والمكانة (سعيدعجينة) فذهب الى الصائغ وطلب منه ان يحفر له على خاتمه عبارة (بحب بني سعيد عجينة) متوهماً أنه ناقش (سعد ناجي) ٠

انا لاشك ان هذه القصة موضوعة الا انها شاعت في النجف وصار الناس يتندرون بها:-

كما مال النجفيون الى شعر الغزل الى الاوزان الخفيفة والموسيقى الراقصة ، ومن امثلته مثلاً قصيدة (السيد رضا الهندي) المشهورة المسماة بـ (الكوثرية) ذات الموسيقى الخفيفة والمعاني الطريفة ومن بحر المتدارك (المحدث) :-

أمفلج ثغرك ام جوهر ورحيق رضابك ام سكر

قد قال لثغرك صانعه (انا اعطيناك الكوثر)

والخال بخدك ام مسك نطقت به الورد الاحمر

عجباً من جمرته تذكر وبها لايحترق العنبر

ان يبد لذي طرب غنى او لاح لذي نسك كبر [٥١]

كما نظمت في النجف أجمل شهار الخمر بالرغم من بيئتها الدينة والمحافظة التي ان اي منها لم تعالجه معالجة مستقلة او في الخمر وحده ، وانما كانت كلها أتت في مطالع قصائد المديح او الوصف والتهنئة وكانت تقليداً او محاكاة مما جاء في شعر التراث الخمري العربي القديم انما كان ينظم للتفكهة او التطرف والتسلية ، الا انها اغنوها صوراً وملؤوها طرافة وخيالاً ، لانه لم يعرف في تاريخها من الشعراء من عرف بشربها او معاقرتها ، ولكنهم قد يكون بينهم من شهد بعض مجالسها لدى أصدقائهم في بغداد ، فعرفوا أسرارها ورأى أثارها في الشاربين ، فضلاً عن استيعابهم لمعانيها او أوصافها في شعر الخمر في التراث العربي في مختلف عصوره ، فنظموها كؤوساً وسقاة واواني الا ان كل شعر الخمر النجفي ليس فيها قصيدة واحدة مستقلة في وصفها ، لكنها أمتلأت بخيال طريف وصور ممتعة ، ومعان جميلة وأوزان خفيفة ولغرض الموازنة نذكر منها – مثلاً – ما جاء في موشحة الحبوبي (الخمرية) الشهيرة في قوله :-

شمس المحيا تجلت في يد الساقي فشع ضوء سناها بين افاقي

سترتها بغمي كي لا لاتنم بنا فأججت شعلة ما بين اماقي

تشدو ابارقها بالسكب مفصحة بشرى السليم فها ذي رقية الراقي [٥٢] ومنه ما جاء عن موشحة أخرى له قوله في قسم منها :

كن لدى جلوتها منتبها فعلى تكييفها طال اللجاج

أهي بالكأس ام الكأس بها اذا بدت صرفاً فأخفاها المزاج

فمنها شيء بدا مشتبهاً ام حما شيئان خمر وزجاج [٥٣]

الى اخر هذه الموشحة النفيسة

اما الشاعر (ابراهيم بحر العلوم) وهو يتفنن بجمال الساقي ورونق الكأس وحلاوة في مذاقها فيقول:

امديرها والعيش أغيد حمراء او صفراء صرخد

قم فاجلها عقانية صبغت لجين الكأس عسجد

وبأسرتي من نار لي قمراً وفرع الليل اربد

نشوان ان دب بها الضرام فما صحا اذ قيل عربد[٥٤]

٠٠٠٠ الخ

اما الشاعر النجفي (مهدي الحجي) فيضيق ذرعاً بتحريم الخمر فهو لايملك منها صبراً ولا يقدر عنها بعداً ولا يطيق لها فراقاً وهو يطلب سقايتها ، حلالاً كانت ام محراما ، حين يقول :

لا تمي يالله خل العتبا واسقني الصهبا حلالاً ام حراما

ثم غني باسمها لي طرباً فهي مولى ولها كنت غلاما [٥٥]

ويستغرب الدكتور رضا القريشي من جرأة هذا الشاعر وقال انه غريب في مجتمعه المتحفظ الجاد (الموشحات العراقية) (٥٦) لكننا لا نرى في سلوك هذا الشاعر او جرأته شيئاً من الغرابة فهو ليس اول شاعر نجفي يتفنن بالخمر او يدعي حبه منها او لهفته عليها او الشوق لها انما هو ذلك الجو المفعم بالطرافة او الفكاهة الذي ساد في النجف في تلك الحقبة حتى قال ما قال وجرأته لم تكن اكثر من غيره مما نظموه بعينها وتنزلوا بها حتى من رجال الدين والوجهاء تظرفاً وتطرفاً ، وما ساد من روح الفكاهة لتزجية الوقت وسمر المجالس لا سيما في مجالس الافراح والزواج والتهنية بالحج وامثاله وحيث لا يستنكروا الحاضرون اذا ما سمعوا مثل هذا الشعر الخمري لانهم يعرفون ان ما يقال هو لبث روح المرح والفكاهة فيها ٠ ومثل شعر الطرافة وشعر التغزل بالغلمان واطراء حسنهم وجمال قوامهم ٠ حتى صاروا يقرأونها حتى في مجالسهم الاجتماعية ولا سيما في مطالع قصائد المديح والتهنئة ٠

فالشاعر (موسى الطالقاني) مثلاً الذي كان عالماً وفقيهاً (ديوان الطالقاني / ٢٨٨) يدعي انه يهيم بغلام جميل حين قال :-

ياشقيق البدر ما احلى العذار فوق خديك كروض معشب

واجتماع الليل فيه والنهار معجز لم يأتنا فيها بنبي

يانبي الحسن ماهذا النفار وهواك اليوم امنحي مذهبي

بك امنت وما خنت الذمام فارحم اليوم مشوقاً ما غدر

فلقد اوهنت بالهجر العظام اه والهفي ولم اقضي الوطر(٥٧)

أترى يسيطيع السيد الطالقاني ان يقول مثل هذا في بيئة محافظة متشددة غير حب الطرافة والظرافة والفكاهة والهزل انما هي النفوس التي عشقت المرح واستهوت الفكاهة ونعود للشاعر الفقيه الجليل السيد الحبوبي حين يترنم بجمال غلام وما فيه من حسن وخفة ودلال وعفة حين يقول :-

في هذه الموشحة النفيسة التي تخرج مخرج شعر (العرفان) :-

طرز خديك العذاران تطريزة الورد بريحان

خداك من ورد ومن نرجس عينياك ، والقامة من بان

حرائر العشاق شققتها فاخضر منك الاحمر القاني

يامن رأى في الارض بدر السما اشرق في صورة انسان

جال فؤادي ان مشى مثلما في خصره جال الوشحان

وافى وقد شق صباح الدجى فقلت : قد وافى صباحان

يالائمتي اليوم في حبه مهلاً فما شاتكما شاني

هاموا هيامي فيك لو انهم قد عرفوا معناك عرفاني

لولاك لم هجر لذيذ الكرى ولم اهون هجر اوطاني

روحي في روحك ممزوجة وربما تمزج روحان (٥٨)

ما اروع هذا الغزل الطريف والوصف الظريف والوزن الخفيف أيا صح هذا الغزل من السيد الفقيه غير حب الظرف والفكاهة وقبول المجتمع به بسبب معرفة المجتمع ان هذا من شعر الفكاهة والطرافة والكثير من هذا ومثل هذا ، ما قاله السيد ابراهيم بحر العلوم وهو يتذكر ايام مرح وطرب له سلفت ويتحدث عنها حديث المشوق المستهام فيصف ليلة انس قضاها مع اصدقاء له في بغداد جلسوا يتساهرون على ضفاف دجلة فيصف الكأس والشراب والنديم ، ويحيون

ليلة صاخبة مفعمة بالانس والطرب والمرح ، ويعبون من كؤوس الشراب عباً حتى ترنحوا واصابهم الاعياء ،وقد لم كل واحد منهم كثيباً من الرمل ونام عليه ، وقدغمضت عيونهم وتهدلت اطرافهم في قصيدة طويلة خفيفة الوزن جميلة المعاني حلوة الخيال حين يقول في قسم منها :

أخي هل راجع ليل فينظمنا بشط دجلة نظم العقد أخوانا

يا حي دجلة والجرفان قد طفحا فيضاً يسيل على الرضاض عقبانا

لو كنت تطلبنا والملتقى كثب لما طلبت حياة دون لقيانا

مطرحين على الانقاض من سهر نثني النمارق الانقاء وكثيرانا

يجشو بنا الغمض والاشواق تنهضنا للهو حيناً وللاطراب احيانا

نهب تبتر اللذات ما عرضت مثنى فمثنى ووحداناً فوحدانا

يضمنا الشوق ضم الشوق لابسه حتى تلابس اقصانا بأدنانا (٥٩)

كما كانوا يترضدون النكتة حتى في الاسواق والطرق منها مثلاً : مادار بين الشيخ جواد الشبيبي (الذي كان ذا انف كبير) والشيخ عبد الحسين الجواهري الذي كان في رأسه أثار قرع قديم حين التقيا في السوق فنبز الجواهري الشيخ الشبيبي بقوله (شيخنا هذا خوش ركي) ثابزاً له بأنفه الكبير ، فأجابه الشيخ الشبيبي على الفور او البديهة (بلي شيخنا وأحمر للكشر) مشيراً الى القرع في رأس الجواهري ٠

لكن الشيخ الشبيبي لم يكتف بهذا الرد الاذع ، انما راح بعدها ، فنظم قصيدة طويلة فيها القرع في راس الشيخ الجواهري وصفاً طريفاً هازلاً ، يبعث على الابتسام والضحك كما توضح قدرة الشبيبي في هذا الباب من خلال روحه المرحة وظرافه الممتع ، كما توضح مدى جرأة الشبيبي ، لان الشيخ الجواهري كان هو الاخر اديباً كبيراً مقتدراً جريئاً ومن اسرة ادبية عريقة ، فهو والد الشاعر محمد مهدي الجواهري ، وخال الشاعر علي الشرقي وهذا قسم من قصيدة الشبيبي الطويلة الطريفة :

لك رأس مرصع ومدبج دوحة المسيء انبتت فيه بسج

روضة ينيت الشقائق فيها اقحواناً وسوسناً وبنفسج

خط ياقوت فيه جدول تبر قطروة من (قيحة) بزبردج

فوق كافورة من الشعر مسك كل من شم نشره يتينج

ارضه عسجد وحصباه در لو ازيلت اصدافه لتتدحرج

عمموه بلؤلؤ وعقيق فهو ملك معمم ومتوج

ايها الصقر في خدودك شعر مشرئب كأنه ريش دعلج

كيف يرجو لناظر منك عدلاً وله حاجب من الحسن معوج

لك ريق – يحمومه – ياحمانا – الله منه ببلغم الصدر يمزج

ولك اللحية التي الف بيت من زوايا جهاتها الستر ينسج (٦٠)

والسؤال الان هنا نجد مثل هذا الشعر الطريف واللطيف من الهزل والدعابة والفكاهة والوصف في ادب (بغداد) مثلاً وهل يدلني احد على شاعر بغدادي له ما وجدناه في النجف ، على كثرة مجالس الانس والشراب والطرب في بغداد ؟

صحيح ان في الكثير من شعر الغزل واللهو في بغداد من الطرافة والصور الجميلة ، الا انه لا يطاول غزل النجف وطرافته وظرافته الا انه طغت قصائد الخمر فوق قصائد الغزل وابانت عن جلاس يشربون لا عشاق يتعذبون – ولاجل الموازنة – نذكر هنا امثلة من جيد شعر الغزل البغدادي والطريف منه نجده هل يطاول شعر الغزل الطريف النجفي فمن جيد الغزل البغدادي– مثلاً ما قاله الشاعر محمد حسن كبة :

ما لقلبي تهزه الاشواق خبرينا اهكذا العشاق

كل يوم لنا فؤاد ذا مذاب ودموع على الطلول تراق

عجباً كيف يدعي الورق وجدي ولدمعي بجيدها اطواق (٦١)

وقوله في ابيات غزل اخرى – مثلاً :

نحن قوم اذا نظرنا صبونا واذا العشق ملنا ماسلونا

لم نرح من هوى المعافين الا وعلى حجرتين منه غدونا

جئت مستعدياً من الحب قلبي فأذا الحب للصبابة به عونا

فتنتنا بحسنها وجنات ككؤس الطلا صفاء ولونا (٦٢)

اما الشاعر البغدادي (عبد الغفار الاخرس)

فأنه يتغزل في قصيده له بغلام كان يعشقه ويهيم به حبا – كما ذكرت المصادر – كان قد حبس ، فسكب (الاخرس) عليه دموعاً ساخنة – حين يقول :

يشن علي ان تشقى بحبس او لتبقى لرش او لكنس

تكبل بالحديد وكنت اخشى كا ذرة عليك من لبس الدمقس

وعز علي ان تبقى بدار وما يلقى بها غير الاخس

تقول سلوتيني ونقضت عهدي وخنت مودتي ونسيت انسي

معاذ الله ان اسلوك يوماً ويومي في غرامك مثل امسي

تحدق في هواك دموع عيني بالسنة من العبرات خرس

يجول عليك طول الليل فكري واصبح فيك محزوناً وأمسي

واذكر مامضى من طيب عيش وآكل راحتى واعظ خمس (٦٣)

وفي الحق ان هذه الابيات لوعة ظاهرة وغزلاً صادقاً ، الا انها من جانب اخر تمثل حالة مرضية في العاطفة حين يهيم الشاعر بغلام ، وبغداد في تلك الحقبة كانت مملوءة بالحسناوات من النصرانيات والاجنبيات ، وبذلك فهي لاتستطيع ان تطاول الغزل النجفي الطريف في الغزل بغلام او بغير الغلام :-

فأذا كانت بغداد على ما فيها من مباهج وحرية اللهو وخروج النساء الى الشوارع والاسواق وسسفور الاجنبيات على هذا البعد من اصالة الغزل وعلى هذه الدرجة من برود العاطفة وركاكة التعبير والافتقار الى حسن البيان فأن أشعار الحلة في الغزل كانت اقل جودة وابرد عاطفة واقل عدداً وابهت صوراً واكثر تكلفاً ...

فعلى كثرة ما جاء في دواوين الشعر الحلي من غزل لكننا لا نجد فيه اصاله الغزل النجفي ولا في صدقه ولا في طرافته ، ولم نجد فيه عواطف حقيقية ، وانما هو ترويد لصور مكررة ومتداولة من الغزل القديم والحديث وانه يفقتد – في أكثره – صدق المشاعر او جمال الصور .

فالشاعر (حيدر الحلي) مثلاً ، اكبر شعراء الحلة واشهرهم واكثرهم شعراً وارقهم عاطفة واعلاهم موهبة يعترف ان كل ما قاله من شعر في الغزل والغرام * انما كان كذباً وان حديثه عن اللهو غير صادق ، في قوله :

ياخليلي على ذكر المقل

خلتما همت ، من يسمع يخل

لا بما في الرأس من شيبي اشتعل

اينما كان غرامي كذبا وحديثي في الهوى لم يصدق [٦٤]

وكقوله في ديوانه في باب (الوجدانيات) يؤكد زعمنا في تكلف السيد حيدر في غزله التقليدي ومن باب المثال نذكر قوله في هذه الابيات التي يغلب عليها التكلف وسذاجة الصور :

جاز النسيم على الغيد الرعابيب فجاء يحمل منها نفحة وطيب

يوم استحلت فتاة الحي سفك دمي واستطعمت في مطال الوصل تعذيبي

هب حسن يوسف فيها مودع او لم يكن لها في فؤادي وجد يعقوب (٦٥)

هذا الغزل واضح انه لم يصدر عن لوعة حب او شوق غرام ولا عن قدرة في هذا الفن بما فيه من الفاظ ثقيلة كـ (حاز النسيم على الرعابيب) وامثالها مما جاء في الابيات الاخرى من القصيدة – وما اريد ان اجدد كل الغزل الحلي من مشاعر انسانية مشروعة ولا سيما ان الشعراء هم ارهف الناس حساً وارقهم عاطفة ٠٠ ولكن ما نذهب اليه ان بيئة الحلة وغياب المرأة عن المجتمع في تلك الحقبة كانوا يستعيرون صور الغزل القديمة المتكررة ولاغراض ملء الفراغ وحسب المناسبات ولا سيما ان من المعروف ان يستحسن الغزل في مطالع قصائده التهنئة والمديح كما هو معروف في الشعر العربي القديم ٠٠

وكقول الشاعر حسن العذاري الحلي متغزلاً :

ياراشق القلب مني اصبت فاكفف سهامك

وياكثير التجني قطعت حتى سلامك

بكيت دالاً وهيماً لما تأملت لامك [٦٦]

ـــــ كذا ـــــ

او قول (حيدر الحلي) :-

واغيد منسوب الى العرب لاح لي على خده خال الى الزنج ينسب

وما نظرت عيناي كالخال مبتلى مقيماً على نار من الخد تلهب

فتلدغه افعى من الجعد تارة وتلسعه طوراً من الصدغ عقرب [٦٧]

وأدهى من ذلك كله قول الشاعر (صالح الكواز) :

وليلة بت والمحبوب معتنقتي وللتقى والهوى في القلب معترك

فقلت للنفس مهلاً ان من يطع الـ هوى حمار ومن يعص الهوى ملك (٦٨)

فهل نجد في ابيات (العذاري و الحلي ، والكواز) اثراً على عاطفة او جمالاً لصورة ، أو طرافة لمعنى ، وهل من الوجد او الحب لدى الكواز مثلاً ان يقول (ان من يطع الهوى حمار) كذا ، ثم ما الوجد في (لاغير المنسوب الى الترك) في قول (الحلي) ، وهل جمع الافاعي والعقارب في بيت غزل يزيد المحب هياماً بالمحبوب / اما (العذاري) فقد انشغل عن الوجد والغرام بتجميع حروف الدال والميم واللام بتكرار ثقيل ٠

اما في (الموصل) : فقد صعب علينا الحصول على امثلة جيدة في شعر الغزل او من صور جميلة او اخيلة طريفة لدى شعرائها ، سوى تلك التي جاءت في مقدمات قصائد المديح او التهنئة في بيتين او ثلاثة ، لكنها في كل احوالها لا تكتسي اردبة الطرافة او حلل الصورة او عاطفة غرام ، وذلك عائد الى طابع المجتمع الموصلي الجاد ، والى سيادة التيار الديني من جهة اخرى ٠٠٠

فمن امثلة جيل شعر الغزل الموصلي – مثلاً – قول الشاعر (حسن عبد الباقي العمري) وهو يستعير التشبيهات التقليدية ، كتشبيه الحبيبة بالشمس ، وجبينها بالبدر وذوائبها باليل – شكلاً وطولاً – وهكذا حين يقول

معي الشمس والبدر المنير وعقدها نجوم اضاءت والليالي النوائب

تغيب وتبدي الصبح تحت ذوائب فما هي الا مشرق ومغارب (٦٩)

ولم يختلف غزل (محمد بن حمد الموصلي) عن غزل زميله العمري بأعادة المعاني التقليدية المكرورة ومستعيراً لفتاته الفاظ الشمس والبدر والقمر والماء والبحر ، فوصف فتاته بقوله :-

ترامى لنا من نور مفرقها البدر وقام لنا في الليل طرتها الشعر

فتاة ارانا مطلع البدر وجهها وقامت مقام الشمس اذ بعد الفجر

ولما علا ماء الحيا جمر خدها تعجبت كيف الماء خالطه الجمر

وقد قذفت فيه بعنبر خالها فضاء له عرف وفاح له نشر (٧٠)

ولو استعرضنا المنشور من الغزل الموصلي لما وجدنا شيئاً جديداً او طريفاً او مبتكراً او صادقاً ، فأذا كان الامر كذلك من قلة في النظم وتكرار في المعاني والتشبيهات مثلما وجدنا في غزل بغداد والحلة ادركنا ان الغزل والفكاهة والابداع في الصور والصدق في العواطف كانت نجفية في هذا العصر ..

٤- <u>الموصل والاتجاه الديني في اشعارها</u> :

لقد ارتبط الشعر بالدين منذ اقدم العصور لما للدين من تأثير كبير في حياة الانسان ، وقد وجدنا هذا الاتجاه كان اوضح وانضج واجمل في شعر الموصل عما في غيرها وقد اوضحنا بأيجاز العوامل التي وجهت الحياة الموصلية في هذا الاتجاه ، ولذلك وجدنا ان الشعر الديني فيها بمختلف اغراضه وفنونه فيما يتميز على غيرها في كثرته وجودته وحسن صوره حتى تكاد لانجد ديواناً موصلياً يخلو من هذا الاتجاه بل ان قسماً من شعرائها كل شعرهم او جله في المديح النبوي والدعاء والاستغفار وشعر التصوف والشعر العرفاني

ولغرض الموازنة نذكر امثلة من الشعر الديني الجيد فيها ... منها – مثلاً – قول الشاعر (حسن البزاز الموصلي) في قصائد كثيرة من اشعاره في ديوانه منها قوله في الشعر العرفاني :-

هل صبا نجد على سكان راما سحر هيت فعادت مستهاما

فلي العذر بمن في حبهم رق نجدي العبا شوقاً وهاما

فدعوني وظلالي في النوى ان مثلي في هواها لا يلاما

كيف يثني ملام بعدما صرت للعشاق في الحب اماما [٧٧]

كما مدح الشاعر نفسه في قصائد كثيرة ال رسول الله منها قوله مثلاً :

بآل المصطفى طاب الوجود ومنهم عمه كرم وجود

واني عبدهم ان يرتضوني وقلبي في محبتهم عميد

دعاني حبهم (حسنا) واني وحرقهم بمدحهم سعيد [٧٢]

كما اكثر شعراء الموصل من الشعر الصوفي والاشادة بأئمة الطرق الصوفية ، فقد اظهر الشاعر (حسن البزاز) مثلاً شوقه للامام الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية وما يعانيه نحوه من الوجد منها قوله مثلاً :-

قلبي اليكم يابدي الشوق مجذوب والصبر عن قربكم للوجد مغلوب

لا استفيق غراماً في محبتكم وهل يفيق من الاشواق مسلوب

ياقلب صبراً على هجر الاحبة لا تجزع لذاك فبعض الصبر تأنيب

هو الرفاعي سامي المجد احمد من مد لاذت العجم فيه والاعاريب

أكرم به سيداً طابت عناصره وكيف لا وهو للمختار منسوب (٧٣)

كما مدح الشاعر نفسه السيخ (عبد القادر الكيلاني) صاحب الطريقة القادرية ، ومنها قوله :-

هو شيخ للكل بل هو قطب لرحى العالم البديع الصفات

هو غوث للاولياء مغيث هو غيث يسح بالمكرمات

ياملاذي وسيدي وحبيبي جد علينا بنظرة والتفات (٧٤)

كما أظهر الشاعر (محمد بن احمد الموصلي) تشوقه لذات الله العليا على طريقة شعراء الصوفية الاقدمين امثال (ابن عربي) و (ابن الفارض) وغيرهم حين قال في احدى قصائده حين يقول :-

تشير لك العشاق في جامع البها وكم لك ينوي في الصلاة ويقعد

وما شهدوا شيئاً سواك وبادروا سواك الكل : اياك نعيد

ووجهك في كل المعاني كعبة ومنها لها الاقمار تسعى وتقصد

تجليت فيها واحداً بعد واحد فلا واحد الاله انت اوحد (٧٥)

هذه الامثلة من الشعر الديني الموصلي بأغراضه المختلفة من الشعر الصوفي والمدائح النبوية وشعر الزهد وان كنا لانجد فيها ابتكاراً ولا قوة ابداع مثلما نجد لدى شعراء الصوفية الكبار امثال ابن عربي وابن الفارض والبوصيري ، ولكنها تبقى على اية حال افضل امثلة الشعر الديني والصوفي العراقي في هذه المرحلة في جودتها وعلى الاقل في كثرتها مما ليس مثيل له الشعر الديني العراقي وغيرها .

اما (النجف) : فمع انها كانت مقراً لمرجعيات دينية عليا ، لكننا لا نجد فيما نظمه شعراؤها من اشعار في النزعة الصوفية او من شاعر زاهد او شاعر متبتل كما في اشعار الزهد والتبتل من حسن او ابتكار او اصالة ، ويكفي ان نكرر ما سبق ان اكبر شعراء النجف واشهرهم السيد محمد سعيد الحبوبي والذي تولى الامامة الدينية ردحاً من الزمن قد خلا ديوانه الذي يقع في (٦١٩) صفحة خلواً تاماً من الشعر الديني ، وهكذا في ديواوين شعراء النجف الاخرين الاماندر ، ولانرى ضرورة لذكر امثلة من هذا النادر الذي توحيه بعض المناسبات الدينية .

فأذا كان هذا حال الشعر الديني في النجف ، فأنه في (بغداد) اكثر قلة واقل نضجاً وعاطفة بسبب حياتها السياسية والاجتماعية ومجالسها اللاهية ٠٠٠

وعليه نقرر ان الشعر الديني وشعر المدائح النبوية واشعار التصوف والزهد كان (موصلياً) مما لا نجد له مثيلاً في غيرها من مدن العراق في هذه الحقبة ٠

أ٠د محمد حسن علي مجيد الحلي

فهرست المصادر والمراجع :-

١- الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، ابراهيم الوائلي – ص ٩٢ – ٩٤ ط٢ ٠ مط المعارف – بغداد ٠ ١٩٧٨

٢- تاريخ الحلة – يوسف كركوش – ١٤٤/١ – ١٥٧ المطبعة الحيدرية النجف ١٩٦٥

٣- الشعر السياسي العراقي – ص ٢٦٨ ط٢ – بغداد – ١٣٢٧ هـ ٠

٤- غرائب الاغتراب – ابو الثناء الالوسي ، ص ٢١١ – بغداد – ١٣٢٧هـ ٠

٥- المدخل الى الادب العربي – بهجة الاثري / ١٧٢ ط٤ ٠

٦- ديوان صالح القزويني البغدادي – مخطوط – موجود في مكتبة الاثار في بغداد – برقم ١٨٩٢ ٠

٧- ديوان التميمي / (صالح) ص ٢١ ٠ النجف / ١٩٤٨

٨- ديوان التميمي / ص ٥٢ – ٥٤

٩- الترياق الفاروقي – ص ١٤٦-٢٤٧ /عبد الباقي العمري ط٢/النجف/١٩٦٤ ٠

١٠- الطراز الانفس / ١٩٨ / في شعر الاخرس /ط أستنبول/١٣٠٤هـ

١١- الترياق الفاروقي / ٢٨٨ – ٢٨٩ ٠

١٢- الطراز الانفس / ١٩٨ ٠

١٣- ديوان ابراهيم الطباطبائي / ١٠١ مط العرفان – صيدا- ١٣٣٢هـ

١٤- ديوان حيدر الحلي ٢١٢/١ /المطبعة الحيدرية النجف / ١٩٥٠

١٥- ديوان حيدر الحلي ٢١٢/١ /ط يومي / ١٣١٢هـ

١٦- ديوان حيدر الحلي ٤٦//٢ – ٤٧ ٠

١٧- تاريخ الموصل ١٢٣/١-١٢٤ ٠ سليمان الصائغ/ج٢/بيروت – ١٩٢٨ ٠

١٨- شمامة العنبر – مخطوط – غير مرقم ٠ في مكتبة الاثار – بغداد٠

١٩- ديوان حيدر الحلي ٨٧/٢ ٠

٢٠- ديوان حيدر الحلي – (ط يومي) من ٢١ – ٢٢ ٠

٢١- ديوان حيدر الحلي – ١٠٩/١ -١١١ ٠

٢٢- ديوان حيدر الحلي – ١٢٥/١ ٠

٢٣- الطراز الانفس – ٤٦٢ – ٤٦٣ ٠

٢٤- ديوان محسن الخضري / ٢٢ ٠ المط الاهلية – النجف ١٩٤٧ ٠

٢٥- ديوان الحبوبي – ١٦٥ ط بغداد ١٩٨٠ .

٢٦- الطراز الانفس ٤٦٢ – ٤٦٣ .

٢٧- ديوان التميمي / ص ١٠٢ .

٢٨- الترياق الفاروقي / ١١٢ .

٢٩- ديوان عبد الباقي العمري / ص ٢٢ – النجف ١٩٦٤

٣٠- نهضةالعراق الادبية / محمد مهدي البصير / ١٥ مط معارف بغداد- ١٩٤٦ .

٣١- المرشحات العراقية / ص ٢٠٢ . د. رضا محسن القريشي – بغداد – ١٩٨١ .

٣٢- ديوان الحبوبي /٢٢٧ – ٢٤١ – ط٢ – بغداد .

٣٣- نهضة العراق الادبية / ٢٨٠ -٢٨١ .

٣٤- سحر بابل – جعفر كمال الدين ٧١ – مط العرفان – صيدا ١٣٣١هـ-

٣٥- سحر بابل – ٢٠٩ .

٣٦- سحر بابل – ٢٦٦ .

٣٧- ديوان موسى الطالقاني / ١٢١ .مط العربي – النجف – ١٩٥٧ .

٣٨- نهضة العراق الادبية – ٢٠٢ .

٣٩- ديوان عباس ملا علي النجفي / ٢٧ المطبعة العلمية – النجف – ١٩٥٦

٤٠- المصدر السابق /٢٧ .

٤١- العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية – جعفر الخليلي / ٤١ .النجف /١٩٧٠

٤٢- المصدر السابق / ص ٤٠ .

٤٣- سحر بابل – ٣٤ – ٤٤ .

٤٤- المصدر نفسه / ٤١٥ .

٤٥- المصدر نفسه / ٢١٨ – ٢٧٠ .

٤٦- العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية / ٤٦ .

٤٧- هكذا عرفتهم – جعفر الخليلي / ٦٦ .مط الزهراء ١٩٦٣ .

٤٨- نهضة العراقية ٤٢-٤٤ .

٤٩- الموشحات العراقية / ٢٠٧ .

٥٠- العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعرية – جعفر الخليلي / ص ٤٦ . محسن الامين ط١ الدمشقي .

٥١- الاعيان – ٨٠/٢٢ – ٨٦ .

٥٢ – ديوان الحبوبي ٢٧٢ .

٥٣- ديوان الحبوبي ٢٠٢ – ٢١٠ .

٥٤- ديوان ابراهيم بحر العلوم ٧٥-٧٦ .

٥٥- شعراء الغري – علي الخاقاني – ١١٤/١٢ . المط الحيدرية-النجف-١٩٥٦

٥٦- الموشحات العراقية / ص ٢٣٥ .

٥٧- ديوان الطالقاني / ٢٢٨ .

٥٨- ديوان الحبوبي ٢٧٥-٢٧٦ ط بغداد .

٥٩- ديوان ابراهيم بحر العلوم الطباطبائي ٢٤٣-٢٤٦ .

٦٠- الشبيبي الكبير ١٤٥-١٤٦ .حسين الحمادي – مط النعمان – النجف – ١٩٧٢

٦١- العقد المفصل – حيدر الحلي ١١٥/١ .

٦٢- العقد المفصل ١١٧/١ . حيدر الحلي – مط الشابندر – بغداد – ١٣٣١هـ

٦٣- الطراز الانفس ٢٤٥-٢٤٦ .

٦٤- ديوان حيدر الحلي ٢١٩/٨ .

٦٥- ديوان حيدر الحلي ١١٨/١ .

٦٦- شهراء الحلة – على الخاقاني ٣٠٨/٤ . ج٤-المط الحيدرية – النجف - ١٩٥٤

٦٧- ديوان حيدر الحلي ١١٩/١ .

٦٨- ديوان صالح الكواز ١٢٣ .

٦٩- ديوان حسن عبد الباقي العمري ٣٤ . القاهرة – المط الشرقية ١٢٠٥ هـ

٧٠- غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام ٢٨٥ .

٧١- ديوان حسن البزاز /٢٩ .

٧٢- ديوان حسن البزاز / ٤٧ .

٧٣- ديوان حسن البزاز / ٥٨ .

٧٤- ديوان حسن البزاز / ٦٢ .

٧٥- تطور الفكرة والاسلوب ١٤٨ . د.داود سلوم – مط المعارف – بغداد ١٩٥٩